المحاضرة الرابعة: حضارات العصر الحجري القديم الأعلى

يتفق المختصون في آثار ما قبل التاريخ لبلاد المغرب على امتداد العصر الحجري القديم في المنطقة وإظهاره لخصائص مختلفة عن العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا مع غياب الفترة المعروفة بالعصر الحجري الوسيط "الميزوليتي"، ورفع هؤلاء مجموعة من الخصائص التي تميز هذه المرحلة:

- انعدام حضارات أو صناعات حجرية في بلاد المغرب تشبه صناعة العصر الحجري القديم الأعلى بأروبا والذي يمتد من حوالي 32 ألف سنة إلى حوالي 9 آلاف سنة.
- الأدوات الموستيرية والعاترية في بلاد المغرب تحتوي على تقنيات الصناعة النصلية والقزمية، والتي تميز العصر الحجري الوسيط في أوروبا، فيعتبر الوسيط في بلاد المغرب امتداد للقديم الأوسط وقد يصل إلى 20 ألف سنة.
- الفرق في تقنيات الصناعة في بلاد المغرب حدث فقط عند ظهور حضارات ما بعد العصر الحجري القديم، حيث اختفت الموستيرية والعاترية.

أولا/ الحضارة الايبيرومغربية:

1- **التسمية:** أطلقت هذه التسمية لاعتقاد بعض الباحثين الذين درسوا صناعاتها أن مرتبطة بحضارات العصر الحجري القديم الأعلى بشبه جزيرة إيبيريا، ويعود الفضل في اكتشافها إلى الأستاذ بول بالاري Pallary الذي قام بمجموعة من الحفريات في موقع عين المويلح سنة 1899 بالغرب الجزائري، وأطلق بلاري عليها هذه التسمية سنة 1909، معتقدا أنها متأثرة بالصناعات الميكروليتية الأيبيرية، كما قام ستيفان قزال Gsell بالتنقيب فيها سنة 1910، وأراد كل من جوبيرE.G. Gobert وفوفري R. Vaufrey وبروي تسمية هذه الحضارة بالحضارة الوهرانية، إلا أنهما لم يفلحا في ذلك. وقد أثبتت الحفريات والأبحاث التي أجري خلال القرن الماضي أنه لا وجود لتقارب أو تأثيرات حضارية تربط بين شبه جزيرة أيبيريا وبلدان شمال افريقيا.

2- **الانتشاروالامتداد الجغرافي:** تعود بدايات الحضارة الإيبرومغربية إلى حوالي 22000 ق.م واستمرت إلى غاية 8000 ق.م، وتمتد من السواحل الأطلسية المغربية حتى السواحل المتوسطية، غير أنها تبدو غائبة على السواحل المتوسطية المغربية ونادرة جدا بالسواحل الشرقية التونسية، كما تنسب لها بعض المواقع الداخلية، ومن أهم مواقعها نذكر كلومناطة والهامل بالقرب من بوسعادة ومغارات تمارهات وأفالو بورمل وعلي باشا قرب بجاية، وجيجل ومغارة راسل بجبل شنوة وجبل إيدوغ بعنابة وبونوارة وكاف أم التويزة بالجزائر، ووادي العكاريت بخليج قابس ووشتاتة بتونس، وكيفان بلغوماري شمال مدينة وجدة وعين الرومان وبوسكورة والخنزيرة بالمغرب الأقصى، وبعد أن ساد رأي لفترة طويلة يقول أن الحضارة الإيبرومغربية حضارة ساحلية، فقد تم التخلي عنه بعد العثور على عدة مواقع داخلية وصحراوية، حيث تواجدت جنوبي منطقة الأطلس الصحراوي بالجزائر مثل الحويطة

والهامل، وفي منطقة الأطلس الأوسط بالمغرب الأقصى بمواقع مرتفعة تزيد عن 2000 م حيث تتواجد منابع مائية وعيون.

3- **الصناعة الحجرية لهذه الحضارة:**

- عرفت الحضارة الإيبيرومغربية اعتمادا على التركيبة التنميطية للصناعة الحجرية للأدوات بصناعة نصيلية، مكونة من أدوات قزمية غنية بالنصيلات ذات الظهر التي هذبت بطريقة مباشرة. مع وجود أدوات متخصصة مثل رؤوس المويلح والنصيلات ذات الظهر المحدب، نصيلات من نوع وشتاتة ذات التهذيب المتباعد.
- المحكات تصنع عن طريق شظايا سميكة وشظايا ذات شكل نويات والأزاميل غالبا ما تحضر على كسور، أما الأزاميل القزمية فهي نادرة، كما يلاحظ أن عملية التشظية سطحية تطبق على حصي صغيرة من حجر الصيوان ونادرا من حجر الكوارتيز أو الحجر الرملي.

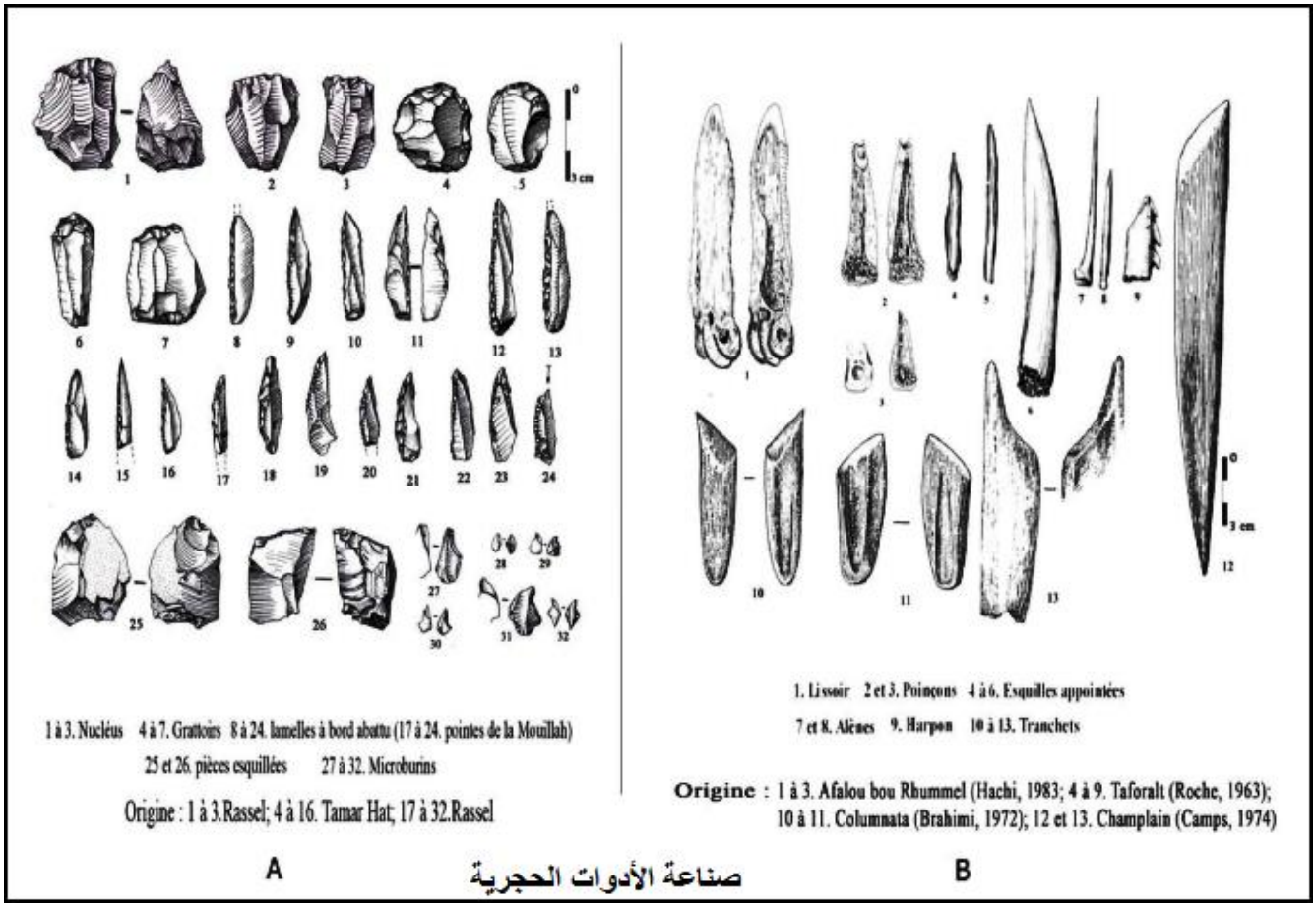

صناعة الأدوات الحجرية

- تحتوي بعض المواقع الإيبيرومغربية على بقايا رحى من الحجارة تضمنت أثر لملونات عضوية ومعدنية غالبا ما جلبت من مواقع بعيدة نوعا ما من المناطق السكنية للإنسان.
- تتضمن المواقع الإيبيرومغربية بعض حجارة وحصى مختلفة غير مشظاة جلبت إلى المواقع السكنية للإنسان، منها أدوات كروية الشكل وأخرى حصى مثقوبة اختلف الباحثون في تفسير جدواها، تم اكتشفتها في موقع تمرحات،

ترى الباحثة كامبس فابرير في هذا الصدد أنها قد تكون استعملت للصيد أو كأداة مسكت بها الشباك أو كأداة استعملت في طقوس عقائدية.

أدوات حجرية إيبيرومغربية

الأدوات العظمية:

تعذر اعتبار الصناعة العظمية كمؤشر للحضارة الإيبيرومغربية، حيث تصدرت الباحثة كامبس فابرير الدارسات التي أجريت على المجموعات الصناعية العظمية، حيث بادرت هذه الأخيرة بدراسة تنميطية وعاينت من خلالها 24 نموذجا منها المجموعات القاطعة والمجموعات الثاقبة وأخرى استعمل في صناعة الحلي.

صنعت الأدوات العظمية بنسب متفاوتة من الدقة بحيث أظهرت بعض الأدوات اكتشفت في موقع افالو بورمل تقنية واتقان في الإنجاز بينما هيئت أدوات أخرى عن طريق الحرق بأقل دقة وكأن الإنسان لم يعتني بإتقان صنعها بحيث أنها لاتزال تحافظ على أجزاء تشريحية لعظم الحيوان.

الفن الإيبرو-مغربي: تعود أقدم المظاهر الفنية بمنطقة شمال إفريقيا إلى الحضارة الإيبرومغربية، إذ عُثر على عدة تماثيل صغيرة بشرية وحيوانية مصنوعة من الطين المشوي، وكذلك على منحوتات فنية ذات أشكال بشرية وحيوانية مصنوعة من حجارة، كتلك المكتشفة في موقع تامرحات من قبل ساكسون أو في موقع أفالو بورمل من طرف حاشي سليمان، كما تم العثور على صفائح صخرية منقوشة بخطوط هندسية منحنية وأخرى مقعرة مثل تلك التي عثر عليها

بالاري في موقع المويلح، كما عُثر في تافوغالت على صخور تحمل صور حيوانية وإن كانت منقوشة بشكل رديء كالفيلة والأروية، كما كانوا يصنعون الحلي من الحجارة والقواقع، ومن بقايا قشور بيض النعام بعد تزيينها، وتلوينها بالمغرة وبعض المستخلصات النباتية والحيوانية، لكن الفن سيعرف .ازدهار كبيرا خلال الحضارة القفصية والعصر الحجري الحديث

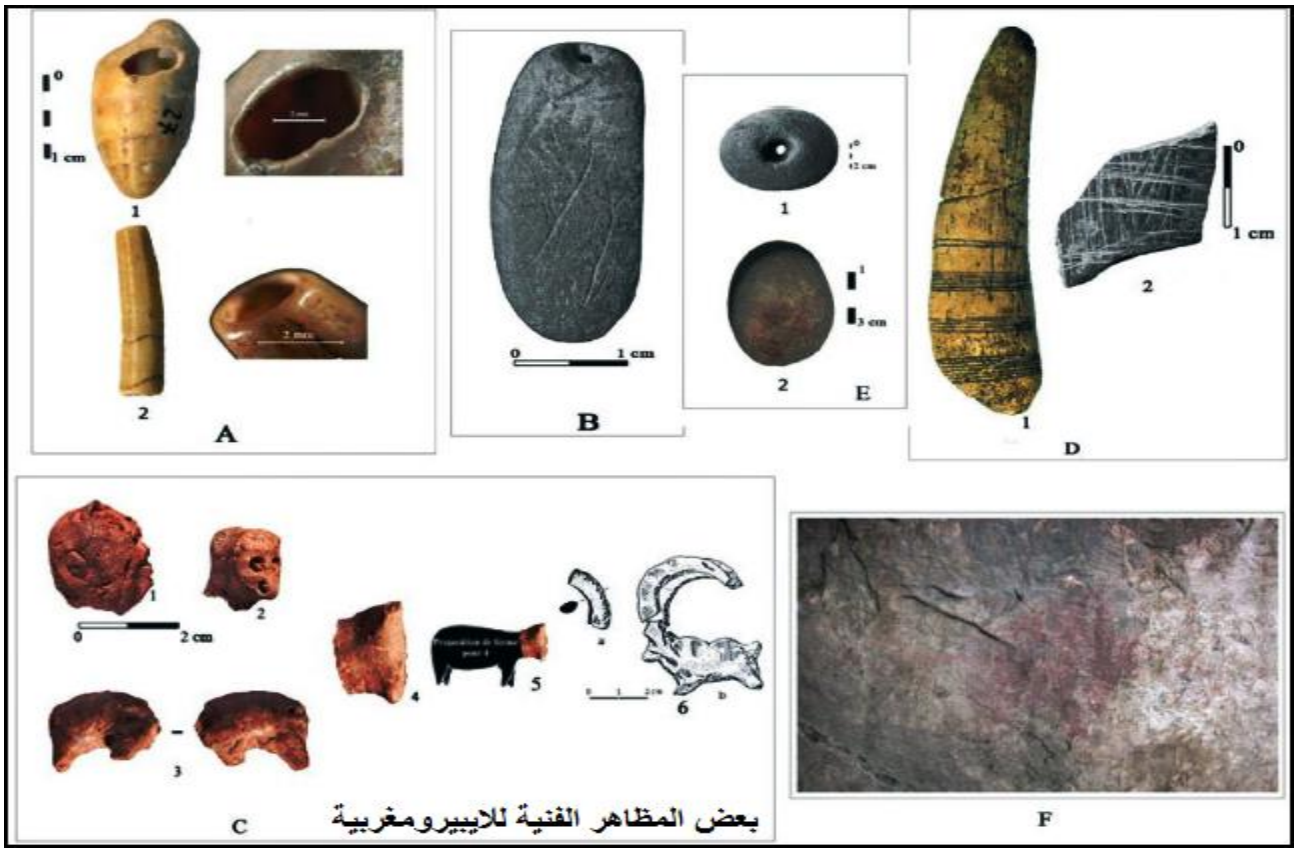

المعتقدات الدينية لدى الشعوب الإيبيرومغربية

تتميز المعتقدات الايبرومغربية بالندرة وكثيرا ما يشوبها الغموض، ومن أهمها:

- عادة قلع بعض القواطع العليا فقط عند الرجال والنساء، ولا يعرف السبب الحقيقي لهذه العادة الغريبة، وربما يكون طقسا يشير للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة والرشد، أو طقس العبور، وهي عادة معروفة لدى بعض المجتمعات الإفريقية الحالية.
- كما كانوا يمارسون عادة صبغ الجسم ببعض المواد كالمغرة.
- وفي الجانب الجنائزي كانوا يدفنون موتاهم في وضعيتين؛ الأولى بطي الجثة على نفسها وتسند على الجنب أو الظهر "وضعية القرفصاء أو الجنين"، وأحيانا يعثر على عظام مسجاة دون انتظام وليس بينها اتصال، وربما كانت ترمى الجثة، وبعد التخلص من اللحم يعاد دفنها من جديد.

هيكل لإنسان مشتى الحربي يحمل سكين بيده

- ووجد طفل مدفون ومتجه نحو الأسفل، كما عُثر على هيكل رجل ممدود وموضوع على الظهر، وأطرافه متوازية مع جثته، والرأس متجه نحو الشرق، ووضعت بجانب الرأس كمية من المواد الملونة كالمغرة، ومعها مخرز مصنوع من عظم، كما وجدت معه بعض الحصى الصوانية المختلفة الأشكال، ولا نعرف الغرض الحقيقي من وضعها رفقة الجثة، فهل كانت بمثابة أثاث جنائزي وضعوها من أجل استعماله في العالم الآخر، وهل هذا يدل على إيمانهم بعقيدة الخلود؟
- واكتشفت مقتنيات داخل القبر ضمن عظام المدفون منها سكين من العظم وضع تحت رأس الميت، وفي نفس الموقع تم التنقيب على نموذج يمسك سكين من العظم في يده وآخر دفن ماسكا في ذراعيه قرد من نوع مكاك.
- كان للشعوب الإبيرومغربية عادات جنائزية مختلفة، شهدت عليها تلك المدافن الجماعية التي تم اكتشافها في العديد من المواقع اين لوحظت مقابر ضمت عشرات الأفراد "موقع تافوغالت، كلمناطة، أفالوبورمل"، كما وجدت مدافن فردية ولكنها نادرة "موقعي قومبيتا وإفري".

<u>6/ انسان الحضارة الايبيرومغربية</u>: قدمت الحفريات المتتالية للمدافن الجماعية لمواقع افالو بورمال وموقع كلمناطة وموقع تافورالت عدد كبير من البقايا العظمية للإنسان، فهذه الدراسات التي أجريت على هذه الأخيرة وضحت الصورة لتحديد الخصائص التشريحية لشعوب هذه الحضارة ولاحظ الباحثون نوعين من نوع الإنسان العاقل العاقل، وهما مختلفين مورفولوجيا، وقد عمروا بلاد المغرب خلال فترة نهاية البلايستوسين الأعلى وهما: 1- شعوب مشتى أفالو رائد الحضارة الإبيرومغربية 2- شعوب ما قبل المتوسطي رائد الحضارة القفصية.

تم العثور على بقايا انسان مشتى العربي ومشتى أفالوا في العديد من المواقع في الساحل الشرقي الجزائري، وأول تشخيص دقيق لهذا النموذج قام به الباحثان بول وفالوا وأطلق حينها تسميته على نمط موقعان عثر على نماذج منه فيها، هما قرية مشتى العربي بشلغوم العيد بميلة ومغارة أفالو بسوق الإثنين ببجاية

يتميز إنسان مشتى العربي بقامة تصل 1.74 م عند الرجال، و1.63م عند النساء، وتصل سعته الدماغية إلى حوالي 1650 سم^3، ويبدو أنه كان قوي البنية، عريض الكتفين، له سواعد وسيقان طويلة مقارنة مع العضد والفخذ واليد، والأرجل طويلة نوعا ما، أما الجمجمة ذات شكل بيضوي أو خماسي، وهي ذات طول أكثر من العرض في نموذج أفالو وتافوغالت، أما الجبهة فقليلة البروز ومتراجعة نسبيا، وأقواس الحواجب متصلة، أما الوجه فيتميز بالقصر والعرض، أما محاجر العيون فمستطيلة الشكل والذقن بارز جدا.

أما إنسان مشتى أفالو فقد عمر المنطقة في حدود 8000-6000 ق.م ويحظى بمميزات خاصة بحيث يظهر بجمجمة ذات سعة دماغية كبيرة وحاجبين قويان ومتباعدين مع وجه متدفق نحو الأمام وعريض، الأنف بارز وفك سفلي ضخم، تتراوح قامته بين 1,62 م إلى 1,80م، معدل الأطراف طويلة نوعا ما.

جمجمة لرجل وامرأة لإنسان مشتى العربي

2/ الحضارة القفصية

الاكتشاف وأصل التسمية:

يرجع الفضل للباحث ديمورقان **De Morgane** في اكتشاف الموقع الأثري النموذجي بقفصة بتونس سنة 1909 حيث قام هو والدكتور كابيتان Capitan بتسمية الرماديات التي احتوت على البقايا الأثرية بالحضارة القفصية، حيث اعتقد ديمورقان أنها تنتمي إلى حضارات العصر الحجري القديم الأعلى وبالتحديد إلى الحضارة الأريغناسية أو إلى الحضارة البيرغوردية في أوربا، وشاطر الباحث ريقاس هذا الرأي مشيدا على التشابه الكبير في المحتوى الأثري للحضارة القفصية مع هاتين الحضارتين وانتسابها إلى حضارات العصر الحجري القديم الأعلى حيث طلب بحذف تسمية القفصة.

وبعد القيام بأبحاث وتنقيبات جديدة عُثر على أدوات قزمية، فرأى كل من الباحثان فوفري R. Vaufrey وجوبير G. Gobert بتأكيد التسمية ونشرها في الأوساط العلمية كحضارة تتميز بها الجنوب الغربي التونسي والشرق الجزائري، كما أنها حضارة داخلية ولم تصل مظاهرها إلى السواحل.

نبذة عن أهم الأبحاث الأثرية للحضارة القفصية

- جلبت الحضارة القفصية اهتمام الكثير من الباحثين كونها تعتبر مفصلية وتفسر التواصل الحضاري بين العصر الحجري القديم المتأخر والعصر الحجري الحديث، وقد تم نشر الكثير من المقالات والمذكرات والرسائل والتي تم تقسيمها إلى ثلاث مراحل.
- المرحلة الأولى تعتبر مؤسسة للاكتشاف وبالتالي قديمة ما بين سنة 1909 وسنة 1940 والتي خصت كل من الباحث ديمورقان وجوبير وبالاري وريقاس وفوفري.
- تليها المرحلة الثانية التي أجريت بين سنة 1950 وسنة 1970 والتي خصت كل من الباحث قريبينار وكامبس وبالوا حيث أحدثت هذه الأخير تطورا قيما في المعارف الأثرية للحضارة القفصية
- المرحلة الثالثة فهي تخص الدراسات الحديثة بطرق متطورة وانطلقت منذ سنوات الثمانينات من روادها الباحث لوبال Lubelle الذي أجرى أبحاثه على مواقع بالشرق الجزائري والباحث رحماني الذي أجرى عدة دراسات لمواقع بتونس والجزائر، حاول من خلال تحليل النتائج التي استقاها منها أن يبرز الحدود الكرونو-ثقافية بين القفصي النموذجي والقفصي الأعلى، أما الباحث الإيطالي بيلازاني وكذا الباحث بلهوشات ركزا أبحاثهما على المواقع التونسية أبرزها موقع هرقلة.
- اهتمت الباحثة عاودية Aoudia بجانب الطقوس الجنائزية للحضارة القفصية حيث درست بعض المواقع بالجزائر أهمها موقع فايد الصوار سنة 2013، في حين ركزت الباحثة مرزوق على ابراز جانب البيئة القديمة

وعلاقتها بالغطاء الحيواني لكل من الحضارة الإبيرومغربية والحضارة القفصية وذلك من خلال الدارسات التي خصت بها موقع تازة وموقع مجاز بالجزائر.

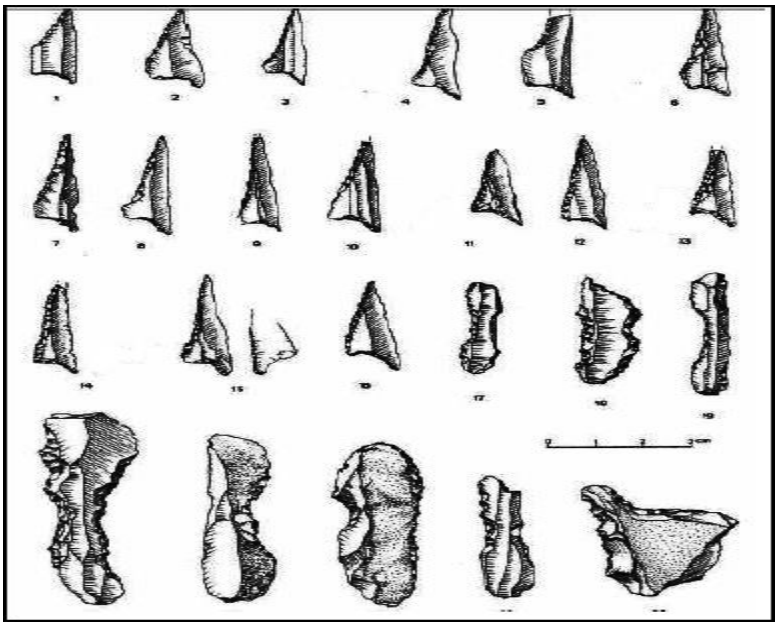

3/ الأدوات القفصية: تمثلت أغلب الأدوات القفصية في الشفرات والرؤوس ذات الظهر والمحكات والنصال المصنوعة من حجر الصوان، وتميزت هذه الأدوات بالتنوع والدقة والجمال، كما صنعوا المخارز والإبر والسكاكين من عظام الحيوانات، واستغلوا بيض النعام كأكواب وقوارير، أما القشور المهشمة فقد صنعوا منها بعض الحلي للزينة.

كما تعد الصناعة العظمية من بين النشاطات الكثير التي مارسها الإنسان القفصي، وهي متواجدة بأنواع وأعداد متفاوتة في المواقع حسب الأطر الكرونو-ثقافية للحضارة القفصية، حيث تعد جد ضئيلة في الطابق الذي يحتوي على مرحلة القفصي النموذجي متمثلة في حوالي ستة أنواع منها أربعة أنواع من المثاقب وأداة واحدة للخرز وأداة للتمليس، أما في القفصي العلوي فقد وجدت 5 مجموعات وهي أدوات عظمية قاطعة، المثاقب، أدوات عظمية للتلميس، المخارز، المناجل، أدوات عظمية للزينة.

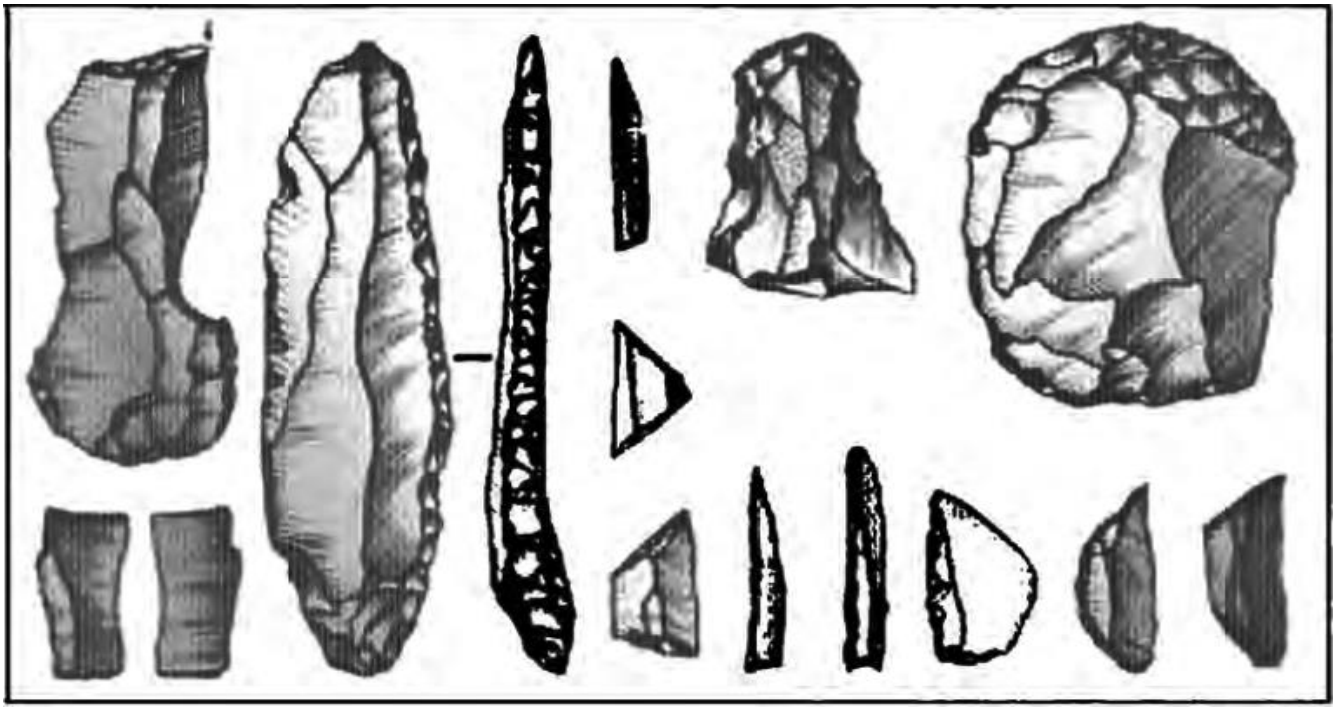

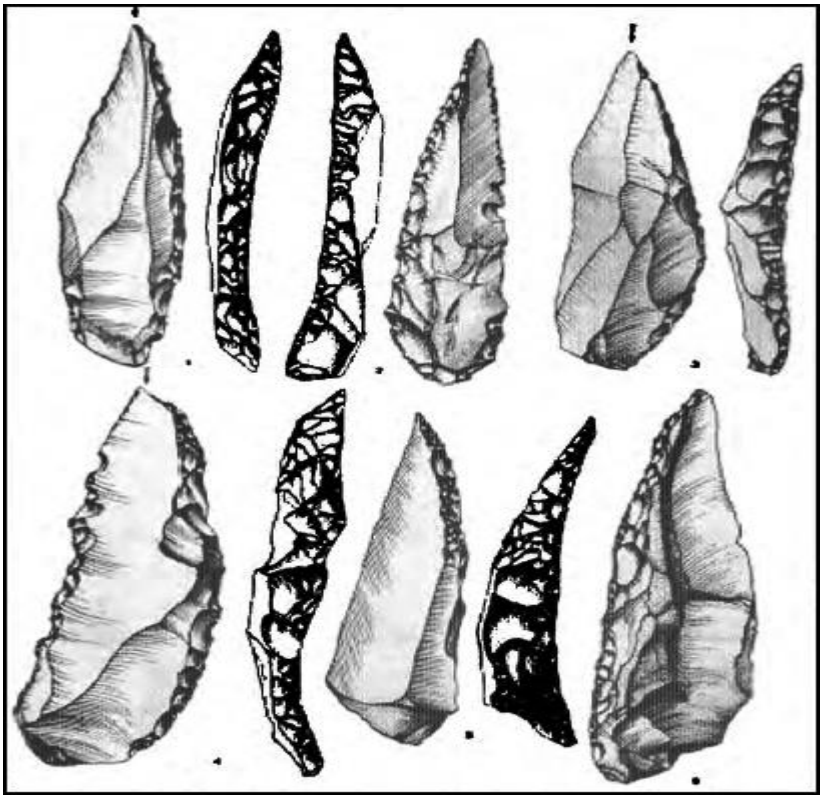

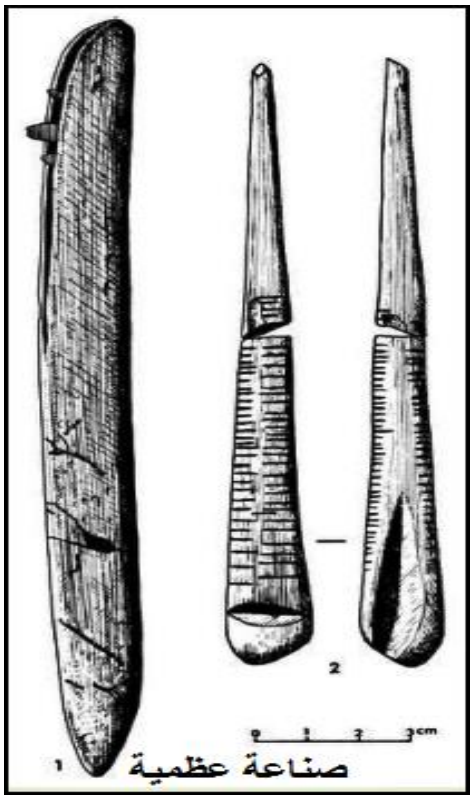

4/ الانتشار والامتداد الجغرافي:

لم تستغرق إلا فترة زمنية قصيرة مقارنة بحضارات أخرى، وتعود أولى أدواتها للألف الثامنة قبل الميلاد إلى غاية الألف الخامسة قبل الميلاد، ومن أهم مواقع في تونس نذكر الموقع النموذجي قفصة والقصرين وسيدي بوزيد والرديف وفريانة والمتلوي وأم العرائس والقطار وعين متهرشم وعين سندس وبئر حمايرية وبئر أم علي. ومن أهم المواقع الجزائرية نذكر موقع الجبانة وقلعة المحاد وعين الذكارة وارفانة بتبسة، المجاز 2 وعين بوشريط بسطيف وكدية كيفان بعين مليلة وكلومناطة وكيدا بتيارت وواد بوسعادة وحاسي المويلح وعين الناقة قرب مسعد، ويلاحظ من خلال هذه المواقع تمركزها في وسط غربي تونس وشرق الجزائر حتى تيارت. كما توغلت لمنطقة شمال الصحراء ويتضح ذلك في مجموعة من المواقع في تقرت ووادي سوف تؤرخ بحوالي 6650 ق.م، وموقع الحجار بورقلة ويؤرخ بحوالي 5350 ق.م.

المظاهر الفنية للحضارة القفصية:

- مارس الإنسان القفصي نشاطات عبر من خلالها فنيا، واقتصر ممارسته للفن على ثلاثة دعائم مختلفة؛ الأولى بيض النعام والثانية زخرفة الأواني الفخارية والثالثة اللوحات الحجرية المنقوشة، كلها متواجدة في المواقع القفصية بصفة متباينة، لكن يعتبرها الباحثين مؤشرا ثقافيا يساعد في تحديد الوجه الثقافي بدقة.
- استعمل الإنسان القفصي بيض النعام في حياته يومية على غرار استعماله الأدوات الحجرية والأدوات العظمية واعتبرها مادة مميزة فصنعوا منها قوارير وحاويات للمواد السائلة وأواني، كما تفنن الانسان في تفصيله لتحقيق الأشكال التي أراد صنعها، ونخص بالذكر استعماله للقشور الصغيرة والتي وظفها للزينة كالحلي المشكلة من

الدوائر الصغيرة مثلا، وصنعوا منه عقودا، كما زخرفوا البيض بخطوط هندسية مائلة أو متوازية ورسوم حيوانات، فضلا عن استخدام الفنان القفصي للمغرة الحمراء في طلي الوجه الداخلي للقطعة.

- كما رسم القفصيون الحيوان كالبقر والماعز أو طائر، فضلا عن صور بشرية أو حيوانية أو هندسية على الجوانب الصخرية والحجارة الكبيرة.
- كما اهتم القفصيون بنحت تماثيل صغيرة لبشر وحيوانات، منها ثلاثون منحوتة بموقع المكتا بالقرب من قفصة أغلبها مصنوع من الكلس الناعم، فضلا عن الأقنعة البشرية ذات الدلالات الديني.

نمط معيشة القفصيين:

- عاشت واستقرت المجموعات البشرية القفصية في المدة الممتدة بين الألفية الثامنة والألفية الخامسة على نمط معيشي قائما أساسا على القطف والصيد.
- احتوت جل المواقع الأثرية على غرار تلك التي نجدها في الجنوب القسنطيني والجنوب التونسي على توضعات اثرية تميزت بكثافة الرماد وتراكم الحجارة المحروقة وكثرة الحلزونيات، حيث عرفت بتسمية الرماديات أو كما سماها الباحثين بالحلزونيات، كما أنها تحتوي كذلك على بقايا الطبخ ممزوجة ببقايا فحم، حيث تمثل بقايا الحلزونيات المتنوعة نسبة 40% من مجموع البقايا الأثرية الأخرى.
- أوضحت الدراسات التي قام بها الباحث لوبال في العديد من المواقع القفصية أن الإنسان القفصي كان يعمر تلك المواقع بصفة فصلية ثم يهجرها، أين تتوضع تلك الركام الرمادية الهشة بفعل العوامل المناخية وتكون طبقة صلبة متماسكة، بالإضافة إلى التعرية التي تسببها بعض الحيوانات الصغير والنباتات.
- إن تواجد بقايا عظمية لحيوانات آكلة للأعشاب في المواقع الأثرية تأكد أن الحلزونات لم تكن الغذاء الوحيد والأساسي للقفصيين، وقد تم التعرف خلال الحفريات على بعض منها على غرار البقر والغزلان والأروية والأحصنة ويعتبر الظبي النموذج الأكثر تواجدا في المواقع القفصية، في موقع مجاز 2 على سبيل المثال تصل نسبة استهلاك الظبي 52% من مجموع العظام المكتشفة في الموقع أما في موقع الماء الأبيض قدرت نسبة استهلاكه بـ 69%.
- اعتقد الباحث مورال أن الإنسان القفصي مارس سلوكا انتقائيا خلال اصطياده لبعض الحيوانات التي أظهرت بقاياها العظمية حداثة سنها، ويرى الباحث في هذا الصدد أن هذا الانتقاء قد يكون بغرض الإبقاء على وفرة القطيع وذلك بالسماح له بالتكاثر، بينما يرى الباحث لوبال أن كثرة بقايا الظباء في المواقع قد يكون أولا لوفرتها وثانيا لأنها اسهل للاصطياد مقارنتا مع غيرها من الحيوانات الآكلة للأعشاب الأخرى.
- لاحظ الباحثون غياب شبه كلي لعظام الحيوانات الطائرة، علما أن بيض النعام كان واسع الاستعمال من طرف القفصيين وفي شتى حاجيات الحياة اليومية لهؤلاء على غرار الأواني ومعدات الزينة، إلا أن الباحثة مرزوق اكتشفت بعض أجزاء لعظام طير النعام وسط ركام عظمية لجزارة، وبينت عملية معاينة هذه العظام آثار للقطع من جراء عملية الجزارة ، مؤكدتا أن هذا الطائر قد تم استهلاكه غذائيا من طرف المجموعات البشرية للقفصيين.